المحمولات الثقافية في قصيدة المديح السياسية في العصر الأموي

أ.م.د. جميل بدوي حمد الزهيري/ جامعة واسط / كلية التربية / قسم اللغة العربية
طالب دراسات لعليا / مرتضى خالد عبد رحيمة / كلية التربية / قسم اللغة العربية

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله وصحبه اجمعين

وبعد...

لقد عُني العرب بالنقد بصورة متدرجة نحو السعة والتعمق وكان النقد لديهم من الدراسات المهمة في هذا الفرع المعرفي؛ لأنه أساس لتذوق أدبهم وجماله واستبيان سر هذا الجمال وقوته.

و يعالج النقد عند أمة ما أدبها وما خلقته عبقرية أدبائها وشعرائها، إذ يتعامل مع الموضوعات والأغراض الشعرية التي أُنتجت لأجيال تلك الأمة، فالناقد قد يحاول التعرف على الأدب بالتعامل معه وتحليله وتعليل سبب ظهوره عند الإنسان، من خلال تعدد زوايا النظر واختلافها.

إن هذه الدراسة تتناول موضوعاً مهما في الشعر العربي ألا وهو قصيدة المديح في العصر الأموي، اذ برز في هذه القصيدة عددٌ من الأنماط والأنساق السلبية التي تحكمت في تنميط قصيدة المديح لمدة طويلة في تاريخ الشعر العربي، إذ نهل الشعراء من ثقافة سلبية موروثة من العصر الجاهلي تحكمت في إنتاجهم لهذه القصيدة، فغدت محمولات ثقافية بارزة نكشف عنها على وفق الرؤيا الثقافية النقدية الحديثة وتبدو هذه الأنساق ومحاولة كشفها جانباً مهماً في هذه القصيدة .

حاولنا في هذه الدراسة أن نقدم صورة عن هذه المحمولات الثقافية من خلال الشاعر والممدوح والناقد والمتذوق، وكيف أنهم كانوا يصدرون عن أنماط سلبية تلبست في هذه القصيدة التي تخصصت بالملوك والحكام والآلهة منذ الحضارات البشرية القديمة، وقد اتبعنا منهجاً يعتمد على الاستقراء والتصنيف والتحليل لهذه الظواهر الثقافية التي حث عليها بنو أمية لإبراز زعامتهم على الدولة العربية الإسلامية .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على قراءة عدد من دواوين شعراء المديح في العصر الاموي فضلا عن الاستقراء والنظر في المؤلفات النقدية القديمة التي اظهرت مدى تداخل النظر في عدد من المحمولات الثقافية التي حملتها هذه القصيدة .

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

المحمولات الثقافية في قصيدة المديح

شكل غرض المديح ظاهرة ثقافية بارزة في الديوان الشعري عند العرب؛ ذلك لأنه من أكثر الأغراض الشعرية التي قال فيها العرب واهتموا بها، اذ قلما تجد شاعرا يخلو ديوانه من غرض المديح؛لأنه قائم على أعراف ونظام يجب أن يلتزم به الشاعر عندما يمدح ((ولهذا كان اهتمام أولي الأمر والسلطة – الشديد- بالمديح وكان عطاؤهم ومحاسبتهم لشعرائه ينم عن معرفة ووعي بخطورته، وكان كذلك حال الشعراء في استعدادهم له وإرهاقهم أنفسهم في سبيله وتنافسهم المحموم في ميدانه))[1]

وعلى هذا الأساس كان الشاعر يلتحق بالسلطة القائمة كونها هي المسؤول الأول عن المجتمع والمال الذي يبتغيه الشاعر جزاء عملية المديح، وقد انتعش غرض المديح في العصر الأموي تحديدا وذلك؛ لان بني أمية شجعوا بشكل كبير على هذا الغرض بالأعطيات والمال الوافر؛فكان لردة الفعل الكبيرة من السلطة جراء المديح الشعري تأثير كبير في تحميل هذه القصيدة كل ما يتعلق بتاريخ بني أمية بدءا من الجاهلية وحتى وقتهم بخاصة بعد أن تعرض المجتمع لعملية تغيير اجتماعية كبيرة وهائلة بدخول الإسلام، فبدأ الشعراء ينهجون على وفق هذه المنظومة القائمة، فيمزجون بين الصفات العربية القائمة والصفات الدينية والأخلاقية التي جاء بها الإسلام، فبرزت انساق مدحية جديدة داخل قصيدة المديح محققة بذلك خدمة كبيرة لبني أمية مكنتهم من التربع على العرش العربي لوقت ليس بالقصير .

من أهم الروافد الثقافية في قصيدة المديح رافدان مهمان هما: الإسلام والقبيلة ويتمحور التفكير الجاري في تأثيرهما على الفكر العربي منذ قرون عديدة، فالإسلام قائم على قيم وأخلاقيات ومثاليات راقية أما القبيلة، فتعطي قيماً ثقافية متضاربة بين العملي والإنساني وبين العنصري والنسقي .

والمديح بوصفه غرضاً من أغراض الشعر العربي الذي يشكل جزءاً كبيراً من الثقافة العربية يحتوي على عدد من المحمولات الثقافية التي تتصل بالمجتمع العربي وطبيعته اتصالاً وثيقاً نحاول أن نستجليها من قصيدة المديح في العصر الأموي، وقد استعملها شعراء المديح بكثرة في قصائد المديح الشعري؛ ليشكلوا منظومة نسقية كاملة أمام المجتمع العربي تحمل كل مقومات الشرف الرفيع والمجد والشجاعة وغيرها من الصفات العربية التي نفتخر بها .

من هذه الروافد والمحمولات التي يمكن ان نستجليها من قصيدة المديح هي:

أولا: الحسب/النسب:-

---

[1] في النص الشعري العربي/ ١٠٩

اجتمعت كلمتا الحسب والنسب منذ أمد بعيد في الثقافة العربية واصبحت نسقا ثقافيا بين البشر وبين الطبقات الاجتماعية بين الناس، وقد اعتمد عليهما شعراء المديح في العصر الأموي بشكل كبير ويذكر ابن خلدون أن فائدة النسب هو في صلة الأرحام؛ وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء، ومن فوائدها أيضا النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة [١]

تحمل العبارة الرمزية الحسب والنسب في طياتها شحنة ثقافية عالية الكثافة وأخذت معاني مجازية وثقافية عندما نجمع بين الكلمتين، فعندما نقول:أن فلاناً بلا حسب ولا نسب يقال أن من الاستحالة وجود بشر من دون نسب، ولكن العبارة فقدت معناها اللغوي وأخذت معناها الثقافي الطبقي[٢] .

وأفرد ابن رشيق القيرواني باباً في أصول النسب وبيوتات العرب وروي أن العرب ست طبقات شعب، وقبيلة، وعمارة، وبطن، وفخذ، وفصيلة ونقل عن أبي أسامة أن تأليف هذه الطبقات جاء على تأليف خلق الإنسان الأرفع فالأرفع، فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس،ثم القبيلة من قبيلته،ثم العمار الصدر،ثم البطن،ثم الفخذ ثم الفصيلة قال وهي الساق،فمضر شعب وربيعة شعب وغيرها وأسد قبيلة، وكنانة قبيلة وغيرها وقريش عمارة وغيرها[٣] .

وقد قامت أغراض الشعر العربي مثل المديح،والهجاء والفخر على باب النسب بشكل كبير، وذلك لان الشعراء إنما يفتخرون بالنسب الكبير ويعدون صفات الممدوح مع نسبه وحسبه الذي يتمتع به وكذلك فأن الهجاء يعتمد بشكل كبير على هذه السمة التي ترسخت في الخطاب الشعري بشكل كبير في العصر الأموي بخاصة في النقائض .

والنسب هو أسم، وعلم، ورمز على قوم فإذا أطلقنا كلمة النسب على العرب فأننا نشير إلى نسب واحد، وأمة واحدة وثقافة واحدة وعرف العرب بامتلاكهم المجد والحسب وهي رسالة الإسلام الخالدة، فبعد أن كانت القبائل العربية متفرقة جمع شملها نبينا الأكرم محمد " صلى الله عليه و آله وسلم " وأصبحت هناك رابطة عضوية تحققت على يد نبينا الأكرم محمد " صلى الله عليه وآله وسلم " تربط العرب جميعا وهي الإسلام والقران الكريم الذي ربط العرب جميعا برباط ثقافي واحد .

وفي كل ما يملكه الاسم من قصص كبرى في التاريخ نجد وجوده عندما نجد الرمز هو الأصل وهو رمز تختلط فيه الوقائع ويأتي الخيال ليكمل الصيغة عبر تركيب تصور أصلي يجمع بين النسب والحسب بين ما هو فطري وواقعي وما هو خيالي وادعائي وهما مكونان جذريان لأية قصة كبرى

---

[١] ينظر: مقدمة ابن خلدون/ ١٢٨ ـ ١٢٩
[٢] ينظر: القبيلة والقبائلية/ ١٥ ـ ١٦
[٣] ينظر: العمدة: ٢/ ١٣٨

تاريخية كانت أو إبداعية؛ اذ نرى الملاحم وهي في أصلها نصوصا حكائية امتاعية؛ لكنها تتحول إلى قيمة رمزية ثقافية تحل محل الحقائق الكبرى[1] .

وأشاع شعراء بني أمية مصطلح النسب الأموي وعراقته وقرابته من رسول الله (ص) ورأوا انه يجب أن تكون الخلافة في عائلتهم، فمن ضمن الأنساق التي عوّل عليها بنو أمية في الحكم هو نسق النسب التي أشاعوها في أهل الشام كما ذكرناها سابقا في أنهم استحقوا الخلافة لقرابتهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويذكر جرير في مديحه لسليمان بن عبد الملك مسألة النسب والفضل لهم ولا يعادله غيرهم، فيذكر أنهم الأصول وقد علوا كل رابية بقوله:

نمت بكم الأصول إلى الروابي ... وفي اعيا صكم نبت الأصول
ألا هل للخليفة في نزارٍ ... فقد أمسوا وأكثرهم كلولُ
وقبلكم إذا ذُكرت قُريش ... وان كثرت مكارها الجليلُ
علوتم كل رابية وفرع ... وغيركم المذانب والهجولُ
لكم فرع تفرع كل فرع ... بفضل لا تعادله الفضولُ
تزول الراسيات بكل افق ... ومجدك لا يهد ولا يزولُ[1]

استعمل الشعراء الحسب والنسب كخطاب ثقافي انبثقت منه صور وانساق ثقافية تلبست الشعر العربي، ويأتي ارتباط المجد مع السلطة ليقدم منظومة نسقية مكثفة عمل عليها الشعراء وهذا الخطاب يحتوي على انساق عديدة مثل التفضيل الطبقي الذي جعله الشعراء خاصاً ببني أمية، وأن لهم الشرف الرفيع والمجد التليد وتأتي الجملة النسقية في هذا النص وهي (علوتم كل رابية وفرع) (وغيركم المذانب والهجول) فالشاعر هنا يسبغ النسق في القصيدة وتحضر صيغة (نحن/هم) ويتجه الشاعر باتجاه تكوين أصوليات عنصرية، فالأمة واحدة والإسلام واحد، والتفضيل في الإسلام يكون على حساب التقوى وليس بالحسب والنسب وأفضلية العرق كما فعل الألمان حين قالوا أنهم أفضل الشعوب وان العرق الآري أفضل الأعراق، فالإسلام ينافي هذا وينفي تفضيل احد على احد بهذه الطريقة ولكنها لعبة النسق وسر مهدنها وعلامتها وتخفيها .

ويشير الاحوص إلى هذه المعاني نفسها التي تجمع بين الحسب والنسب والمجد والسلطة التي كانت عند بني أمية بتفضيلهم على ابناء البشرية قاطبة ويذكر أنهم قوم ورثوا المجد في بيوتهم وقد أكرموا بالنسب؛ اذ قال:

قوم ولادَتهُم مَجدٌ يُنال بِها ... مِن مَعشر ذُكروا في مَجد من ولدوا
الأكرمونَ طِوال الدَهر ان نِسُبوا ... والمُجتَدون إذا لا يُجتَدى احدُ

---

[1] ينظر: القبيلة والقبائلية/ ٢٢
[1] ديوان جرير: ٢/ ٧١٨

والمانعونَ فلا يُسطاع ما مَنعوا والمُنجِزون لما قَالوا إذا وعِدوا
والقائلونَ بِفصلِ القول إن نَطقوا عِندَ العَزائم والمُوفون إن عَهِدوا
مَن تمس أفعالهُم عاراً فأنهم قَوم إذا ذُكرت أفعالَهم حُمدوا
قوم إذا انتُسبوا ألفيتَ مَجدهم من أولّ الدهر حتّى يَنفد الأمدُ
إذا قريش تَسامت كانَ بَينهُم معها إليه بَصير المَجد والعَددُ
همُ خيرَ سكان هَذه الأرض تَعلَمهم لو كانَ بِخير عن سِكانهُ البَلدُ
يَبقى التُقى والغِنى في الناس ما عَمروا ويُفقدان جَميعاً إن هُم فُقِدوا[1]

يبني الشاعر في هذا الخطاب ما يشبه المرجعية الثقافية لبني أمية عند العرب، فهؤلاء القوم هم أرباب المجد والسلطة والملك وجاءهم هذا من النسب والحسب الذي تتمتع به هذه الأسرة بدءا من أول الدهر، ولا ينتهي أبدا، فالشاعر يرى أن الصفاء المعرفي وجد عند بني أمية؛ لذا فهم بلغوا الحد الأعلى في الصفات الحميدة، وهذه الصفات هي حكر عليهم؛ لان التقى والغنى يبقى في الناس عندما يبقى بنو أمية ويفقد إذا فقدوا ويتحكم النسق الشعري بالشاعر بأقبح صورة عندما يقول: (هُم خيرُ سكان هذه الأرض نعلمهُم) فإذا كان القوم يملكون النسب الرفيع والمجد والحسب والنسب، فيجب أن يكونوا خير هذه الأرض وليس خير قبيلة أو خير العرب، بل خير هذه الأرض وخير البشر بأجمعهم، وبهذا فان الشاعر يبدأ بلعبة الإقصاء والتهميش لباقي البشر، فالخلافة والملك والسلطة والمجد ليست غريبة على بني أمية ما داموا هم أفضل البشر وأفضل الناس على الإطلاق.

وأسبغ النسق على الشاعر؛ ليقوم بتفضيل هذه القبيلة على البشر وتهميش الآخر- وهذا الخطاب لا يتناسق مع ما نتصوره عن هذه القبيلة وما قيل عنها من جرائم إنسانية وفكرية سيئة الصيت، فالصفات التي جاء بها الشاعر تناقض المعقول الفكري الذي يرتبط ببني أمية ويناقض الصورة الخيالية والهالة التقديسية التي ارتبطت بهذه القبيلة العربية، فقد اعتمد الشاعر على الجماليات البلاغية والنفسية لتتدرج في هذا الموضوع الخطير في الشعر العربي، ((وتستطيع الرمزيات أن تسوق القبحيات وان تحسنها، وهذا هو احد وجوه الصناعة الثقافية وكيف أن البشر تصنع لنفسها أنموذجاً رمزيا من منظومة المجد والسلطة))[2].

وترتبط قصيدة المديح ارتباطا مباشرا بالمجتمع العربي الإسلامي ولكن الشاعر كان يستعملها لهمومه الخاصة، في التكسب برفع الممدوح والمبالغة فيه، فكان المديح مدخلاً إلى الجانب

[1] ديوان الاحوص/ ٤٨
[2] القبيلة والقبائلية/ ٢٤

الاجتماعي، واعلاء شأن الممدوح في المجتمع واهتم الشعر الأموي كثيرا بالجانب السياسي وهو اقل الأغراض تعبيراً عن الجانب الجماعي[١].

إن الخطاب المدحي الذي أنجزه شعراء المديح في العصر الأموي كتب لنا تاريخا أدبيا مزيفا أصبح مقياسا للأنموذج الشعري المحتذى واستمر هذا التزييف بعد قرون عديدة لترفد نماذجه المزيفة الديوان الشعري عند العرب، ويشكل نسبة كبيرة جدا من هذا الديوان، وجاء عمل الشعراء بأقصى جهدهم ليرفدوا هذا الديوان بأنساق شعرية جاهلية أكدت ابتعادهم عن المنظومة الإعلامية التي اقرّها الإسلام في المجتمع العربي ليشكل خطاباً مثالياً راقياً ناقداً لمثل هذه النماذج الأدبية ولكنه أصبح في العصر الأموي خطاباً شكلياً، وبالتحديد عند بني أمية الذين أولوا علاقتهم بهذا الخطاب الديني عناية خاصةً، ((فالقوانين التاريخية والاجتماعية والنفسية التي ترتبط بإرادة الإنسان وحريته تختلف في آلية عملها عن القوانين الكونية الصارمة، فهذه القوانين تجري من بين يدي الإنسان ويشكل الإنسان فيها قطبا مركزيا فإرادة الإنسان لها سلطة على تلك القوانين ويبدو أن الإنسان هو الذي يمكنه أن يسلب القانون التاريخي قوته ويتغير اتجاه عمله بكامل إرادته))[٢].

ويذكر عدي ابن الرقاع في مديحه لعمر بن الوليد بن عبد الملك شرف الآباء والأجداد الذين ينتمي إليهم وشرف نسبه الرفيع والى جانب هذا، فقد كان من أصحاب الحسب والنسب إلى جانب تقواه وتركه الفواحش وغيرها بقوله:

تَركَ الفَواحِش مُذ تَرعرَعَ يافِعاً ... ونَما إلى الحَسبِ الرَفيعِ الأفضَلِ
مِن مَنصِبِ العَرَبِ الذي مَا فَوقَه ... للناسِ مِن شَرَفٍ ولا مُتَمهلِ
ولرُبَّ مُغتبطٍ كريم قَد غَدا ... مِن عنده بهجا بِنَفخة مُجزلِ
وإذا رأيتَ جَماعةً هو موفيهُم ... بينتَ سؤدده وان لَم تَسالِ
ألفى أباهُ وجَده وأباهُما ... مَروان في الشَرَفِ الرفيعِ الأطولِ
نُطَفاءُ كانَوا للبريةِ عِصمة ... فَأطاقَ آخرُهُم فِعال الأولِ
أنَت ابنهُم بُنيتْ عَليكَ بيوتُهم ... في قَاهِرٍ لِذوي الضَغائِنِ مُعتلِ
بالحقِ قَام فَما يُقصر سَمعهُ ... عَن صوتِ مَظلومٍ ولا مُتذَلّلِ[١]

يشير الشاعر إلى احد الأصول النسقية في الثقافة العربية وهو الحسب ومعه النسب الذي زرعه شعراء المديح لبني أمية مدعين أنها الأسرة التي استحقت الخلافة الإسلامية ولا خلاف عندنا في أن أي إنسان يفتخر بنسبه، ومن حقه ولكن عندما يتحول النسب إلى سبب للاعتداء والسلطة

---

[١] ينظر: نماذج في النقد الأدبي/ ٩٨

[٢] حفريات في الاستبداد/٥٠

[١] ديوان عدي بن الرقاع/ ٧٠-٧٢

والتحكم فانه غير مقبول، وسينتج عندنا أسرا نسقية تستغل القرابة من رسول الله" صلى الله علية واله وسلم" للبطش والقتل والإرهاب الفكري والجسدي، فهذا إساءة لرسول الله " صلى الله علية واله وسلم " وكما خرجت عندنا اسر مثل بني أمية، وبني العباس اللذين اعتمدا على النسب بشكل كبير لاعتلاء سدة الحكم كما قرأنا ما قاله شيوخ الشام من أنهم لا يعرفون قرابة لرسول الله " صلى الله علية واله وسلم " سوى بني أمية ، فالتجليات النفسية التي ظهرت في قصائد المديح لشعراء بني أمية وبخاصة في النسب الذي جعله الشعراء الخطاب المدائحي والسياسي والفكري في المجتمع العربي وأصبح النسب قيمة ثقافية ضمن الإلغاء والمصادرة مع بني أمية .

ويضفي الفرزدق على ممدوحه صفات مقدسة ويدخل أيضا في النسب الذي بوأه مكانه سامية في المجتمع العربي وهو يمدح عمر بن الوليد بن عبد الملك قائلا:

إليكَ سَمتْ يَا بنَ الوَليد رِكابُنا ورُكبَانُها أسمى إليكَ واعمدُ
إلى عُمرا قبلى مُعتمد انهُ سِراعا ونِعمَ الركبُ والمُعتمدُ
ولم تَجر إلا جِئتَ للخيل سابقاً ولا عُدت إلا أنتَ في العودِ احمدُ
إلى ابنِ الإمامَين الذينَ أبوهُما إمامي لهُ لولا النُبوةِ يُسجدُ
وأنتَ امرؤٌ عوَدت للمجدِ عَادةً وهَل فَاعِل إلا بما يَتعَودُ
إذا ما عُد قَومٍ مَجدهُم وبيوتُهم فضلتُم إذا ما أكرمَ الناسِ عَددوا[1]

لقد اكتسب هذا الخطاب الشعري حصانة وقداسة جعلت نقده ضربا من المحرمات الثقافية بحجة تعالي الشعرية وخصوصيتها وتفردها مما يقتضي التعامل معها بخصوصية، وجرى إغفال عيوب الخطاب النسقية في شعرنا الذي هو من اخطر خطاباتنا الثقافية[2].

ويذكر كثيّر عزة ممدوحه عبد الملك بن مروان بان له المجد والعلى الذي أتاه من الشجاعة التي كانت لأبيه؛ حتى دعت خلف الأحمر أن يقول: ان كثيراً اشعر الناس في قوله لعبد الملك وتمثل بهذه الأبيات:

دعينا ابنةَ الكعبيَّ والمَجدَ والعُلى وراعي صِوارا بالمدينَةِ احسبَا
أبوكَ الذي لمّا أتى مَرْجَ راهِطٍ وقد ألّبوا للشّرّ فيمَن تألَّبا
تشَنّأ للأعداء حتى إذا انتهوا إلى أمرِه طوعاً وكَرهاً تحبَّبا[3]

وبالصيغة نفسها يذهب الشاعر نفسه إلى نجل الممدوح السابق؛ ليمدحه بأبيات تتكشف فيها أسرار النسب وعلاقته بالمجد والخلافة والعطاء الذي يرومه الشاعر اذ قال لممدوحه يزيد بن عبد الملك:

---

[1] ديوان الفرزدق: ١/ ١٢٨
[2] ينظر: النقد الثقافي/ ٨٩
[3] ديوان كثير عزة/ ٣٣

إلى الأبيض الجعدِ ابن عاتكة الذي له فَضْلُ مُلكٍ في البريةِ غالبِ
كريمٌ يؤولُ الراغبونَ ببابِهِ إلى واسعِ المعروفِ جزلِ المواهبِ
إمامُ هُدى قد سدَّد اللهُ رأيهُ وقد أحكمَتهُ ماضياتُ التجاربِ
ولم يبلُغِ الساعونَ في المجد سعيهُ ولم يُفضلوا أفضاله في الأقاربِ
رأيتُكَ والمعروفُ منكَ سَجيةٌ تَعمُّ بخيرٍ كلَّ جادٍ وغائبِ
أبوك غداة الجزع من ارض مسكنٍ يؤم العدا بالجمع بعد المقانبِ[1]

إن هذه الأبيات التي اعتمد عليها الشاعر في خطاب المديح تركز على منزلة الممدوح ومكانته اعتمادا على أسرته التي تشربت الأمجاد والسؤدد من الجاهلية مرورا بالإسلام فالمسألة التي يسوقها الشعراء إلى قصيدة المديح مسألة تاريخية ثقافية تتعلق بثقافة العرب وأمة العرب، وهي ليست بسيطة بذلك القدر اذ اعتلى بنو أمية العرش في امة صعبة وهي امة العرب بواسطة نسبهم وأمجادهم وسلطانهم في الجاهلية ولا نريد أن ندخل إلى التاريخ، ولكن في الوقت نفسه يؤكد المؤرخون أن أمجاد قريش وفضلها وشرفها وسيادتها على قبائل العرب انما جاء بفضل جهود أشخاص وهم هاشم وعبد المطلب والنبي محمد "صلى الله عليه واله وسلم"[2]

فشعراء المديح ركزوا على جانب النسب والمجد في قصيدة المديح حتى شكّل ظاهرة عند شعراء المديح في العصر الأموي لاسيما عند فحول الشعر في هذا العصر، ومنهم كثير عزة اذ تؤكد الأبيات التي سقناها اعتماد الشاعر على هذا المنفذ لارتباطه بشيء كبير للممدوح؛ إذ هو سيعلي من شأن الممدوح بخاصة أن البنية الثقافية والاجتماعية في العصر الأموي قد توسعت كثيرا عما كان عليه الوضع في الجاهلية، إذ دخلت الأقوام إلى الإسلام بفعل الفتوحات الإسلامية وأصبحت تدين بدين الإسلام بعدما صور بنو أمية أنهم خلفاء النبي وان لهم الخلافة، إذ هي هبة من الله عز وجل مما يعطي صورة إعلامية هائلة للممدوح أمام المجتمع كون القصيدة وسيلة قوية لتحقيق هذا الغرض، وبهذا فالممدوح ارتبط بالعطاء أكثر من أي شيء آخر، ولهذا تكثر الإشارات الخاصة بالعطاء للممدوح في هذه النصوص، وبهذا يصدر الشاعر قصيدته عن ثقافة مدحية أصبحت صناعة ثقافية في وقتها كونها تخضع للضوابط والالتزامات التي يلتزم بها الشاعر تجاه الممدوح .

ويكرر الفرزدق في خطاب ثانٍ الأنساق نفسها:

---

[1] ديوان كثير عزة/ ٣٣

[2] ينظر: قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية/ ٤٧ وما بعدها، الحزب الهاشمي، محمود سيد القمني .

أرى اللهُ قد أعطَى ابنَ عاتِكة الذى به الدين أمسَى مُستَقيمِ السَوالفِ
تقى الله وبحكمِ الذي ليسَ مثلهُ ورأفةَ مهدي على الناسِ عاطف
فلا بَاس أني قَد أخَذت بِعروةٍ هَي العُروة الوثقى تَجر الخَلائف
لَدى مَلك وابن الملوك كأنهُ عَام بُدور ضوءهُ غَيرَ كاسف
أبُوه أبو العَاصي وحَربٍ تَلافيا إليه بمجدِ الأكرمين الغَطارف[1]

إن هذا النسق قد ركز عليه شعراء المدح؛ ليقوموا باصطفاء هذه الأسرة منّا وإنها استحقت الخلافة ورأينا ما فعلته أدوات الثقافة المهيمنة من مؤسسة سياسية ومؤسسة نقدية بالخطاب المعارض حتى وان كان فنيا كما رأينا مع الكميت الاسدي، فهذه الأنساق تتعزز وتترسخ عبر تمثيل الخطاب وهو ما يصيغ ويميز النسق المهيمن .

إن الشعر هو المؤسسة الثقافية العربية التي أثرّت في الخطاب العربي، وذلك لان القيم الشعرية هي القيم الثقافية وقيم السلوك الرسمي الاجتماعي[2].

إن الغريب في هذه الخطابات هو أن بني أمية يتصدرونها ومن هنا يأتي العقلاني ليواجه الجمالي والمجازي بوصفه خطابا غير منطقي وغير عقلاني ويأتي هذا النسق بثنائيات متعارضة مثل:-

الرمزي	في مقابل	الحقيقي
الشعبي	في مقابل	السلطوي
المطلق	في مقابل	التاريخي

فأستغل بنو أمية هذا النسق فوظفه الشعراء توظيفاً مرضيا لبني أمية وهم بهذا يحدثون مصادرة وإقصاء في الخطاب الشعري الذي تضمن معارضات تعسفية كشفت عنها النصوص التي سقناها لذلك، إذ حملت النصوص صفات تدل على الفئوية والطائفية والتهميش للآخر المختلف والتأكيد على نسب واحد الذي نال به المجد والسلطة بالدماء والحديد والتسلط على المجتمع العربي .

ثانيا: القبائلية:

إن المصطلح الواضح الذي يستعمل بكثرة هو مصطلح القبلية ويظهر في كتب التراث وغيرها بكثرة، والقبلية تعد تعبيرا محايدا وهو قيمة اجتماعية مركزية في المجتمع العربي. وللتمييز بين القبيلة والقبائلية يورد الغذامي مصطلحات عدة مماثلة يميز بها بين القبيلة والقبائلية وهي:

المذهب	المذهبية

---

[1] ديوان الفرزدق: ١٢٨/١

[2] ينظر: النقد الثقافي/ ٨٩

الطائفة	الطائفية
الشعب	الشعوبية
قيمة ايجابية	قيمة سلبية

وكما رأينا فان هناك فرقاً بسيطاً بين كل مصطلح ولكن المعنى يختلف كثيرا فالشعب قيمة ايجابية وهي حاجة البشر إلى الاجتماع في ارض معينة وتكوين هوية تساعد على اطمئنان الفرد وأمانه، وكذلك القبلية، فالقبلية من اهم روافد المجتمع العربي الثقافية التي تشكل محورا مركزيا في تاريخ العرب، فهي قيمة ايجابية تنشأ عن حاجة الفرد إلى الاجتماع والاطمئنان بخاصة وهم يعيشون في صحراء مقفرة موحشة، فالقبلية قيمة اجتماعية ايجابية للفرد .

ولكن يأتي مصطلح القبائلية ليكون مصطلحا مضادا للقبلية، ((فالقبائلية هي نسق رديف للشعرنة، فكما أن الشعر قد ولد الشعرنة، فالقبلية قد ولدت القبائلية على أن القبيلة ما خلت قط من عناصر كثيرة وهي عناصر إنسانية ومثالية راقية وبإزائها عناصر سلبية أخرى))[1].

وقد تحولت القبيلة إلى القبائلية لتكوين مفهوم انحيازي عنصري عرقي يعتمد على الإقصاء والتهميش وتكوين نسقا استعملهُ شعراء بني أمية في قصائد المديح الأموي، ويمكن القول: إن القبائلية تتشابه مع الاعراف القبلية المقيتة، فقبيلة قريش استطاعت أن تستغل قضية عثمان كما استغلت خلافته واتخذت من قميصه شعاراً لها وتم لها النصر أخيرا اذ تأسست الدولة الأموية وهي دولة قامت على أساس العصبية القبلية[1]، فالصراع الطبقي بين القبائل ظهر بين العرب في عهد الخليفة الثالث وهو ما نشب بين قبيلة قريش والقبائل الأخرى، والظاهر أن له جذورا عميقة منذ أيام الجاهلية، فقد كانت قريش في الجاهلية القبيلة التجارية الوحيدة، وكانت تتعاطى الربا وجمعت ثروة طائلة، وكانت سادنة الكعبة، وكانت القبائل تحترمها وتحسدها في وقت واحد وازدادت مكانتها بعد واقعة الفيل عندما قالت أن الله يحميها عندما أرسل الطير ضد أعدائها[2].

وامتثالا لهذا النسق فان الفرزدق يرى أن ممدوحه الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ورث أبا سفيان وابنيه، ويرى أن هذه القبيلة قد ورثت أيضا سيف النبي محمد(صلى الله عليه واله وسلم) الذي قاتل به يهود بني النضير بقوله:

ورثتَ بَني سُفيانَ وابنيهِ والذي ... بهِ الحَرب شَالتْ عَن لِقاحٍ حِيالها
أبوكَ أمير المُؤمنينَ الذي بهِ ... رُحى ثَنيتْ ما يُستَطاعُ زَبالُها
إذا مَا رَحى زالَتْ بقومٍ ضربُها ... على الدينِ حَتى يَستقيمُ ثالها
بسيفٍ بهِ لاقَى ببدرٍ مُحَمد ... بَني النضيرِ في بيضٍ حَديث صِقالُها

---

[1] القبيلة والقبائلية/ ٧٢
[1] ينظر: مقدمة ابن خلدون/ ٢١٦
[2] ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ ٩٣

رأيتُ بَني مروان إذ جَد جَدهُم عَلا كُل ضوءٍ في السماء هلالُها
أرى الحَق قادَ الناسُ من كُل جانبٍ إليكُم من الآفاق تلقى رِجالُها
رأيتَ بَني مَروان افلَحَ حقُهم مَشورةَ عُثمان الشَديد مَحالُها[٣]

فالشاعر يصور صورة حية عما يدور في خاطر ممدوحه، وفي خاطره وفي مجتمعه وفي ثقافته من تصنيم الشخصيات الوهمية ومن سلوكيات صحيحة فاللافاعلية هي إحدى عيوب الخطاب؛ لأنها تسلب من اللغة قيمتها العلمية إذ تفصل بين القول والفعل، ولو اقتصر الأمر على الشعر كتجربة جمالية لما صار في الأمر ما يزعج غير أن ارتباط الشعر بكونه علم العرب وبكونه ديوان المآثر ومدرسة الأخلاق فان السمات النسقيه تظل تتسرب من هذا الديوان وتتغلغل في نسيجها الذهني والثقافي ونقوم بإعادة إنتاج هذه النماذج وهذه السلوكيات التي تطبع شخصيتنا بطابعها وتصوغنا بحسب قياساتها[١].

وارتبطت القبائلية بالدعوة إلى العنف وتمجيد القوة وسفك الدماء كما ارتبطت بالصفات الروحية والدينية، ومن ذلك ما قاله الأخطل في عبد الله بن معاوية بن ابي سفيان:-

قرمٌ تَمَهلَ في أُمية لَم يكُن فيهَا بِذي ابنٍ ولا خَوّارِ
يَنبتْ فَتاتك منهُم في أُسرةٍ بيضِ الوجوه مَصالت أخيارِ
جَهراء للمَعروف حينَ تَراهُمُ حُلَماء غَيرَ تَنابلِ أسرارِ
قَومٍ إذا بَسطَ الإله يَبيعُهُم جاءتْ رَحاهُ بِمسيلٍ دَرّارِ
وإذا أُريدَ بِهم عقوبة فَاجر مَطَرت صَواعِقُهم عَليهِ بِنارِ
قَومٍ هُم نَالوا التَمام وزاحَفَتْ عَنهُ مَذارع آخرين قِصارِ[٢]

وقال أيضا في مدح بشر بن مروان وقريش:

لَقَد مَدحتُ قُريشاً واستَغَثت بِهم إذا ما أنام إذا ما صُحبَتي هَجعوا
إني دَعاني إلى بشرٍ فَواضلهُ والخير قَد عَلمَ الأقوامُ مُتبعُ
يا بِشر لو لَم أكُن منكُم بِمنزلةٍ ألقى يَديه عليّ الازلم الجَذع
أعطَاكُم الله ما انتُم أحَق بِهِ إذا المُلوك عَلى أمثالِه اقتَرَعوا[٣]

إن النسق القبائلي المتشعرن يعتمد على ثنائية الإقصاء(انتم أو نحن) فقط، فالشعراء الذين مدحوا بني أمية ركزوا على هذين الجانبين وهما جانب الحسب والنسب الذي تكلمنا عنه والجانب القبائلي المتشعرن . إن ما يركز عليه شعراء المديح هو الفرز الطبقي والفئوي والعنصري لبني أمية

---

[٣] ديوان الفرزدق: ٢ / ٣٢٥
[١] ينظر: النقد الثقافي/ ١٦٨
[٢] ديوان الأخطل: ١/ ١٥٠
(٣) ديوان الأخطل: ١/ ١٥٠

عن غيرها من القبائل العربية، فالله سبحانه أعطاهم ما هم يستحقونه من الملك، والخلافة، والسيادة على العرب لذا فيجب مدحهم بأقصى جهد كما ذهب الأخطل .

ونرى أن هذا النسق يتعارض مع المثالية العالية التي يتصف بها الدين الإسلامي، الذي قام على مبادئ جوهرية أخلاقية وإنسانية وروحية ولم يتخذ العرقية ولا الطائفية ولا الفئوية مبادئ له ويعطي دستور الإسلام، وهو القران نظاما اجتماعيا أخلاقيا للفرد، كما في قوله تعالى ﴿ا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

فهذه الآية تعد أساسا اجتماعيا إنسانيا راقيا يعتمد على التقوى ولا مجال للعصبية القبلية أو التفضيل لبشر من دون بشر، أو لون من دون لون، وإنما التفضيل يكون للأتقى والأكثر إخلاصا .

إن هذا الخطاب الشعبي يحمل صفات النسق وفحوليته من قبل الشعراء وقد حضر النسق هنا بكامل أبعاده وسماته القبيحة؛ مما يدل على تجذر النسق ومدى تمثيله الثقافي لضميرنا الثقافي المتشعرن والمتلبس بكامل عيوبه، ونجد أن الخطاب الذي صنعه الشعراء بمديح بني أمية كانوا غير مقتنعين بصدقه بشأن حق بني أمية في الخلافة والحكم والسيادة، ومما يدل على هذا حكاية الفرزدق، فقد روي أن الكميت قدم البصرة فأتى الفرزدق فقال: يا أبا فراس أنا ابن أخيك

قال ومن أنت؟

فانتسب له

فقال: صدقت، فما حاجتك؟

قال: نفث على لساني شعر وأنت شيخ مضر وشاعرها وأحببت أن اعرض عليك ما قلت، فان كان حسنا أمرتني بإذاعته ، وان كان غير ذلك أمرتني بستره وسترته علي فقال: يا ابن أخي: احسب شعرك على قدر عقلك

فهات ما قلت راشدا

فانشده:

طربت وما شوقا إلى البيض اطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

فقال بلى، فالعب:

ولم يَلهَني دار ولا رَسم مَنزِلٍ ولَم يَتَطرَبني بَنانٍ مُخَضَبِ

ومَا السانحات البَارحات عَشيةً أمرّ سَليم القُرن أم مَر اعضَب

فقال: فقد أحسنت فيه

وقال:

---

[1] الحجرات/ ١٣

ولَكن إلى أهلِ الفَضائلِ والنُهى وخَيرُ بَني حَواء والخَيرِ يُطلبُ
إلى النَفَرِ البيضِ الذينَ بِحُبهُم إلى اللهِ فيما نَابَني أتَقَربُ

فقال: أرحني ويحك من هم هؤلاء

فقال:

بَني هَاشمٍ رِهط النَبي فَإنَني بِهم ولَهُم أرضى مِراراً واغضَبُ

فقال الفرزدق: لله درك يا بني أصبت فأحسنت إذ عدلت عن الزعانف والأوباش إذا لا يصرد سهمك ولا يكذب قولك ثم صرّ فيها فقال: اظهر، ثم اظهر، وكد الأعداء فأنت والله اشعر من مضى واشعر من بقي[1].

ونتبين من هذه الحكاية الحكم الذي أصدره احد فحول الخطاب الثقافي في العصر الأموي، وهو الفرزدق بحق الكميت وهو واحد من ابرز المعارضين السياسيين للسلطة الأموية والهيمنة في المجتمع فيقول له: أنت اشعر الناس وهذا التناقض حاضر بين ما يقوله النقاد الذين تحاملوا على الكميت الاسدي مثل الأصمعي والجاحظ وغيرهم، فالفرزدق على الرغم من المدائح التهويلية والمبالغ فيها التي ساقها إلى بني أمية ومجدهم ومدحهم ألا انه يعدهم زعانف وأوباش وهذا نقيض ما يفصح عنه في شعره وما يقرره من معاني شعرية، فهو يقول معاني شعرية لا يقرها ولا يؤمن بها؛ مما يناقض المضمر الظاهر العلني في القصيدة وهذا ما نتكلم عنه في النسق والتناقض الذي يظهر بين قول الشاعر وما يتكلم عنه في القصيدة .

إن هذه الخطابات والتصورات التي قدمها شعراء المديح هي إلى حد كبير نواتج لحقبة تاريخية قديمة ترسخت في اللاشعوري الجمعي، ومازال تأثيرها مستمرا، بل وجدت الطقس الملائم في العصر الأموي حتى تنشط من خلال انساق بثها الشعراء، واعتمدها الحكام، وبررها النقاد؛ لذا تركزت في اللاشعوري الجمعي في المجتمع العربي من خلال تشعرنها في الحياة والسلوك، فالنسق يدخل بطرق متعددة ومتشعبة، فيدخل في الشعر وفي الخطبة وفي المثل وفي النكتة، وهذا ما يفسر انتشار شعر هؤلاء الفحول فعلى الرغم من أنهم تحت رعاية البلاط سكن هناك ما يفسر القبول لقصائد هؤلاء الشعراء، ((فالأدب يعكس ما يحدث في المجتمع ويعبر عنه ويفعل ذلك من خلال طرائق مختلفة في أزمنة مختلفة))[1]، وهذا ما له تأثيره السلبي الكبير على المجتمع وعلى الناشئة الجديدة التي تتلقى هذه الأنساق السلبية في الفن الشعري .

ثالثا: العنف والحرب في الخطاب المدحي:

---

[1] ينظر: المسعودي: ٣/ ٢١٢

[1] التفضيل الجمالي/ ٣٤٩

عرفت هذه الأنساق السلبية منذ وقت طويل حين عرف الانسان نفسه سواء في علاقته بالطبيعة او علاقة الانسان بالإنسان ويتمثل هذا السلوك بأشكال عديدة سواء كان بالعنف أم بالحرب وغيرها، وقد يتخفى في الخطابات السياسية والإعلامية ومنها الخطابات الشعرية الجمالية، ومن ضمنها الخطاب المدحي في العصر الاموي الذي ارتبط بمؤسسة سياسية وبثقافة جاهلية موروثة ظهرت على اثرها هذه الأنساق السلبية سواء كانت ظاهرة ام مضمرة موروثة اختفت في هذا الخطاب، فغرض المديح يعد من اول الأغراض الشعرية عند العرب غزارة في الانتاج، وقد شهد هذا الغرض تحولا ثقافيا مهما في الثقافة العربية، وذلك بانتقاله الى التكسب وصنع شخصيات وهمية من خلال الخطاب المدحي نهاية العصر الجاهلي واستمرارا في العصر الاموي عندما وضع الأمويون النتاج الشعري الجاهلي الأنموذج الأمثل الذي ينبغي ان يتبعه الشعراء .

إن نشأة المديح عند العرب كانت إعجابا بالفضيلة وثناء على صاحبها أول الأمر وليس بدافع الكسب والتزلف، فمن عوامل انتشار المديح في مجتمعات الصحراء تلك المقدسات التي كانوا يلتزمون بها من ضيافة ونجدة وحسن جوار وثأر التي كان يلتزم بها كل عربي ويؤدي فروضها كاملة مهما يكن شأنه، فالمديح في أول أمره كان مدرسة أخلاق تعمل على بلورة المثل العليا وترسيخها وحض الناس على تشجيعها[1]، وذلك بشكل واسع فكان الشعراء يمدحون به سادتهم وكبرائهم وأشرافهم ومناقب قبائلهم، و يمتدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الجوار فضلا عن عزتها وإبائها، وشجاعة فرسانها، وما فيهم من الحمية والشجاعة بفتك أعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحسن الجوار الذي يرتبطون به مع القبائل الأخرى فكان الشاعر الجاهلي يمدح هذه الصفات الأخلاقية التي عرف بها المجتمع الجاهلي .

ومنذ نهاية العصر الجاهلي وأواخره حدث تطور ثقافي خطير تغير معه النسق الثقافي العربي منذ ذلك الوقت إلى اليوم وتحولت فيه النحن القبلية إلى الأنا الفردية مثلما تحولت القيم من بعدها الإنساني إلى بعد ذاتي نفعي أناني وتحول الخطاب الثقافي إلى خطاب كاذب ومنافق هو اخطر تحول

---

[1] ينظر: أروع ما قيل في المديح/ ١٢

حدث في الثقافة العربية واثر تأثيراً سلبياً ونعني به ظهور شاعر المديح وثقافة المدائح وشخصية المثقف المدّاح وفي مقابلها شخصية الممدوح مع لعب الثقافة لهذه الأدوار جميعها عبر أشخاص يمثلون اللعبة ويحققون نسقيتها، وتمخض عن ذلك أنماط من القيم ومن السلوكيات الفردية[1]، وهذا ما فعله النابغة الذبياني في مدائحه للنعمان، وكذلك الاعشى وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء في العصر الجاهلي. اما في العصر الاموي فقد كان الامويون يركزون على الشعر كجانب اعلامي يهمهم في المجتمع العربي، فكان للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة الأموية بشكل كبير، إذ أن نهوض الدولة الأموية حمل معها نهضة شعرية جديدة تمثلت في الشعر السياسي، فقد نشط في الشعر المدحي أبان الحقبة الأموية كثيرا من الميادين السياسية إن لم يكن جلها، فقد استغل حكام بني أمية أمور عديدة للإعلان عنها وترويجها بواسطة هذا الشعر مثل ولاية العهد والترويج للسياسة الأموية وأفعالها في المجتمع العربي .

ومنذ مجيء الإسلام عمل الرسول الأعظم محمد " صلى الله عليه واله وسلم " على تكوين منظومة اخلاقية واجتماعية وسياسية رصينة، فهي نظام شامل للحياة بجميع جوانبها، ومن الطبيعي ان تأخذ على عاتقها نبذ الأنساق الجاهلية السلبية وإبدالها بأنساق ايجابية .

فالإسلام نظر إلى عدم الإسراف في استعمال القسوة والعنف والحماسة الجاهلية، وكان موقف الإسلام من القوة والعنف موقفا دفاعيا فقط، ولم يكن قط موقفا هجوميا وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1] و ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[2]، ولكن مع عودة الأنساق الجاهلية مطلع العصر الأموي جاء هذا العصر دموياً وعنيفاً واستُغل الشعر للدعوة إلى العنف وتمجيد القوة والعنف حاكى فيها الشاعر ما يدور في المضمر النسقي المختزن لديه، فوردت نماذج شعرية كثيرة في قصيدة المدح تشجع العنف والدعوة له بقناع ديني استبدادي، فجرير يمدح صفات القوة والشجاعة في ممدوحه عبد الملك بن مروان قائلا:-

أنتَ الأمين أمين ُالله لا سرف ... فيما وَليتَ ولا هيَّابة ُورَع
مثلُ المهند لم تُبهَرْ ضَريبتَهُ ... لم يَغشَ غَرْبيه تفليلٌ ولا طَبع
وَارى الزَّناد من الاعياص في مهَل ... فالعالَمُون لما يفضي به تَبَع

---

[1] ينظر: النقد الثقافي/ ١٤٣

[1] الأنفال/ ٦١

[2] الممتحنة/ ٨

ما عُدَّ قومٍ بإحسانٍ صنَيَعهم إلا صنيعكُم فوق الذي صنعوا
أنت المُبارك يَهدي الله شيعتَه إذا تفرَّقت الأهواءُ والشِّيعُ
فَكُل أمر على يُمن أمرتَ به فينا مُطاعُ ومهما قلتَ مستمع
يا آل مروانَ إنَّ الله فَضَّلكم فَضلاً عظيماً على مَن دينه البِدعُ
تلقى الرجال إذا ما خيف صولتهُ يمشون هونا وفي أعناقهم خضعُ
ما كان دونك من مقضىً لحاجتنا ولا ورائك للحاجات مُطلعُ
إن البرية ترضى ما رضيت بها إن سرت ساروا وإن قُلت أربعو اربعوا[٣]

إن الشاعر هنا يمدح صفات القسوة والعنف والتهديد والوعيد التي توجد عند الممدوح، فهذه الخطابات التي تشجع على القسوة والعنف لها تأثير كبير في تشجيع الحكام وتحفيزهم على المزيد من العنف والقسوة وسفك الدماء، ويرسم العمل الفني ومنه الشعر ملامح وعي إرهابي في صياغات فنية تقليدية بالضرورة؛ لأن الاشتغال المنفعل بالتجديد يبتعد عما يوحي بالإرهاب ويتصل بكل ما يحث للحياة وازدهارها بصلة، ومن نماذج الشعر الدال على الإرهاب قصائد الفخر ذات المعاني الانفعالية التي تنال من حرية الآخر وتحط من شأنه ولا ترى صلاحية الحياة إلا لهذا المفتخر بنفسه وهذا كثير في الشعر العربي القديم وقصائد المديح السياسي وقبله القبلي تحفل بنزوع إرهابي عبر ملامح الصورة المرسومة للممدوح تلك الملامح التي تكشفه طاغياً على غيره[١]، فالشاعر يحاكي ما يدور في مضمره القابع، فيبدأ بتقديس هذه العائلة وملوكها عبر ثقافة متجذرة في لا وعي الشاعر اذ كانت الممارسات التقديسية مقترنة بالقوة والقدرة، فالشاعر يحاكي التجليات المقدسة المرتبطة بالقوة الرهيبة والقدرة العالية والتفضيل الديني الذي تحضى به الملوك والآلهة منذ آلاف السنين، فطاقة الملك لا تنفد من الحاجات والعطايا، فهي دائما ناضبة، وهذا ما يخالف طبيعة المنظومة العربية الذي تسيطر على الشاعر في المجتمع الإسلامي، فالشاعر يرى في الملك والحاكم قوة هائلة لا تنضب، فهو صاحب العطايا والحاجات البشرية، فالنص مغلف بإطار قداسي حاكى فيه الشاعر ما موجود في المجتمع القائم فتحضر في النص الجمل الثقافية التي تدل على ارتباط الشاعر بالنسق (ما عد قوم بإحسان صنيعكم)(إن البرية ترضى ما رضيت بها) وغيرها، فالملاحظ أن الشاعر يمزج المقدس الذي يفضل به الممدوح مع القوة والعنف التي يمدحها الشاعر في الممدوح، وهذا ما يدل على رؤية مضمرة للشاعر تجاه الممدوح حاكى فيها ما يقبع في المضمر من رمزية لمقام الملك والقوة والقدرة والقداسة خاصة انه اتصف بهما جميعا، ويأتي الشاعر ليوظف غضب الممدوح

---

[٣] ديوان جرير: ١/ ٢٩٥

[١] ينظر: الشعر فاعلا إرهابيا/ ٣٣

بوصفه قوة كبيرة استحضرها الشاعر وذلك لان ((الغضب علامة دالة على امتلاك الشعور بالقداسة، وهو بوصفه قدرة مقدسة بإمكانه أن يتحول إلى أي شيء آخر))[1].

وسار الفرزدق على خطى جرير عندما مدح الحجاج وجعل افعاله واموره كافة رشدا وصوابا على الرغم من أنه اطغى طغاة العصر وأوغلهم دموية وعدوانا، اذ قال في مدحه:-

أمير المؤمنين وقَد بلَونا أمورك كُلها رُشدا صَواباً
تعلّم إنما الحَجاج سَيفٌ تجذَّ بهِ الجماجم والرِقابا
هوَ السيفُ الذي نَصرَ ابنَ أروى بهِ مَروان عُثمان المُصابا
إذا ذُكرت عيونُهم ابن أروى ويوم الدار أسهلتَ انسكابا
خَليلُ مُحمدٍ وإمام حَق ورابعِ خير من وطئ التُرابا
فليسَ بزايلٍ للحَربِ منهُم شِهابٌ يُطبِقون بهِ شِهابا
بهِ نَبني مكارمُهم وتمرى إذا ما كان درَّتها اعتصابا
وخاضب لحيةٍ غَدرت وخَانت جَعلتَ لشَيبها دَمهُ خِضابا
وملحمة شهدتَ ليوم بأسٍ تَزيد المرء للآجلِ اقترابا
رأيتكَ حين تَعترِكُ المنايا إذا المرعوب للغمرات هابا
تهونُ عليكَ نفسك وهو أدنى لنفسك عند خالقها ثوابا[2]

ونلحظ في هذه الجمل الشعرية المغلفة بالجمال الشعري أن الشاعر يذهب في تحقيق الشرط النسقي الأول وهو التشجيع على العنف وإلغاء الآخر ففي البيت الثاني يفصح الشاعر عن المقصود عندما تأتي الجملة الثقافية في النص وهي جعل الممدوح سيفا (تعلم إنما الحجاج سيف تجذ به الجماجم والرقابا) ومن المعلوم أن دلالة السيف في الشعر العربي هي دلالة ثقافية تدل على القوة والشجاعة والبأس في المجتمع العربي فيجري الافتخار كثيرا بهذه الدلالة الثقافية، ولكن الدلالة النسقية لهذا الخطاب الشعري تأتي مضمرة من حيث أن الخطاب الشعري الماثل اندرج في منحىً تهديدي في النظر إلى الآخر المختلف، وذلك بنظرة العنف للقضاء عليه وإلغائه، وبهذا يتحقق النسق الذي يرومه الشاعر، فالسيف الذي هو الحجاج وهو دلالة على القوة والشجاعة والبأس والنجدة وهو من يجذ الجماجم والرقاب، وتأتي مشروعية هذا القتل من دلالة ميثولوجية في النظر إلى الحاكم والملك على انه لا يقهر ولكن هذا النسق جاء متخفيا بشكل كبير تحت غطاء الدلالة الدينية، فالسيف هو أمير المؤمنين الذي لا يخطئ، وتأتي أفعاله كلها رشيدة وصائبة فالشاعر شرع في البيت الأول يبرر ما يفعله هذا السيف الذي يسفك الدماء ويطير الرقاب، ويؤكد هذا النص نسقيته عندما تتزاحم

---

[1] الأساطير والأحلام والأسرار/ ٢٣١

[2] ديوان الفرزدق: ١/ ٣٤٥

الدلالات النسقية المشجعة على العنف والقوة مثل (السيف، الجماجم، الرقاب، الحرب، الدم، الملحمة)، وتأتي مقابلها الدلالات الدينية التي استعملها الشاعر؛ لتدل على مشروعية الخطاب وهي (أمير المؤمنين، الرشد، الصواب، الشهاب، الثواب) ومن بين هذه الدلالات يبرز هذا الخطاب محملا بنسق العنف والقوة وتشجيع الحكام عليها .

وبهذا فالعديد من النماذج الشعرية في غرض المديح تجري على وفق هذه الأنساق السلبية التي تؤكد عدم التزام شعراء المديح بالحقيقة الشعرية والحقيقة التاريخية الماثلة، فميل الشعراء الى هذه الخطابات لم تكن غايتها الوحيدة تكسبية وانما لها غايات ومداخل اخرى، وان كُنا لا نعدم ان عددا من الشعراء كانوا معدمين ماديا، ولكن هذا لا يختلف عمّا يعانيه المجتمع العربي من اوضاع مادية واقتصادية صعبة، وذلك بسبب النهج السيء الذي اعتمده الحكام؛ مما ادى الى تفاوت طبقي كبير .

إن من نتائج هذا التحول هو زيادة في حدة الخطاب وقسوته ولهجته العنيفة بعد أن تم تبرير هذه الخطابات الشفافية المرتبطة بالمؤسسة السياسية والنقدية كما حدث في هذه الرواية التي صادفَت في مكان مقدس وهو موسم الحَجَ في بيت الله الحرام وفي الشهر الحرام إذ يُوزع الأسرى على أشراف القوم للتسلي بقتلهم وذبحهم، فهذه الرواية ثبتت لنا قسوة ثقافة العنف والقسوة وتمجيدها في هذا المجتمع وتكشف لنا أيضا قسوة الخطاب الذي يمثله هذا الفن الإنساني الرائع .

وربما يأتي السؤال عن أن هذه القصائد ما هي إلا رغبات وأفكار لأشخاص معدودين وهم شعراء حاولوا التزلف إلى الحاكم، وبهذا فلا نستطيع أن نعتمد على هذا الرأي، وذلك لآن الأفق الفكري للمجتمع في مرحلة تاريخية ما لا يتحدد من خلال الرغبات الشخصية لأفراد معينين وإنما من خلال الأفكار الأساسية والمفاهيم السائدة في هذا المجتمع، فالأسئلة التي هي السمة العقلية لأي عصر فكري، وتعكس هذه المشاكل حقيقية المعتقدات السائدة في المجتمع[١].

فما ذكره هؤلاء الشعراء يتم في اتجاه ثقافي قوي يمجد هذه المعاني الحماسية والجاهلية، ((فكثيراً من الشعراء لم يستطيعوا أن يتخلصوا من الانتماء القبلي القديم وظلوا يفخرون بأنسابهم وأيام الجاهلية ومآثر أبائهم وأجدادهم في الشجاعة والنجدة والبأس، ولعل الأمويين كانوا من أكثر الشعراء ميلاً إلى هذا الاتجاه))[٢].

ويمكن القول: إن الشعراء قد استمدوا كثيرا من السمات الفنية والموضوعاتية من تراث الشعراء الجاهليين الذي ظل مسيطرا على فحول الشعراء في العصر الأموي، وبخاصة في المديح والهجاء.

---

[١] ينظر:صناعة العقل/ ٩٠

[٢] القصيدة والنص المضاد/ ١٥١

ويستمر الفرزدق في النهج بهذه المعاني ويمدح العباس بن الوليد وينشر عليه المعاني الدينية والقدسية التي تمجد معاني القسوة والشجاعة والبطش، وعليه فان الشاعر دائما ما ينهل من الموروث الشعري والقران الكريم في العصر الأموي والعصور الاخرى، فنرى الفرزدق قائلا:-

عوامدُ للعَباس لم تَرضَ دُونَهُ بِقومٍ وأن كانُوا حسانَ المطَارفِ
لتسمعَ من قَولي ثَناءً ومدحَةً وتَحمل قَولي يابن خَيرَ الخَلائفِ
ولَمّا دعا الدّاعون وانشَقتْ العَصا ولَم تَخبُ نيرانَ العَدّو المُقَاذفِ
فَزِعنا إلى العَباس من خَوفِ فتنةٍ وأنيابها المُستَقدمات الصّوارفِ
فَقد أوقَعَ العبّاس اذ صَارَ وَقعَةً نهَتْ كُلّ ذي ضِغنٍ وداءٍ مُقارفِ
وأنتَ الذي يُخشَى ويُرمى بك العدى إذا أحْجَمَتْ خَيلُ الجيادِ المُخالفِ
سَموتَ فَلم تُترك عَلى الأرضِ ناكثاً وأمَنتَ من أحيائنا كُلَّ خائفِ
أبَرتَ زُحُوف المُلحدينَ وكدتُهم بمُستَنصرٍ يَتلُو كتابَ المَصاحفِ
وأنتَ إلى الأعداءِ أولُ فارسٍ هُناكَ ووقّافٌ كَريمُ المَواقفِ
بِضَربٍ يُزيلُ الهامَ عَنْ مُستقرِهِ وطَعنٍ بأطرافِ الرماحِ الجوائفِ[1]

إن هذه الخطابات تغلغلت في اللاوعي الجمعي للشاعر العربي كونها تكونت وتغلغلت على مر السنين، فاستحضرها الشاعر الأموي، فهذه الخطابات التي اعتمدت على تمجيد العنف والقتل؛ لها تأثير كبير في طبيعة الأفكار والمواقف والميول والثقافة التي يؤمن بها أفراد المجتمع في العصر الأموي .

ويبلغ جانب القوة وتمجيدها قمته عند الأخطل عندما يمدح عبد الملك ابن مروان ويهجو القيسيين ويحذر بني سليم قائلاً:

وأما سليم فاستَعاذت حَذارنا بَحرّتها السوداء والجَبل الوَعر
تَنق بلا شَي شيُوخ مُحارب وما خلتُها كانت تريشُ ولا تبَري
ونحن رفَعنا عَن سلولٍ رماحنا وَعَمداً رَغبَنا عن دماء بني نَصرِ
ولَو بَبني ذُبيان بَلت رماحُنا لَقرّت بهم عَيني وباء بهم وتري
شفى النفسَ قتلى من سليمٍ وعامرٍ ولم تَشفعها قَتلى غَني ولا جَسر
وما تركت أسيافنا حَين جردت لأعدائنا قيس بن عَيلان من وترِ
وقَد عَركت بابني دخانٍ فأصبحا إذا ما احزألا قبل باقية البظرِ
وكم من جَنين بات يَنزعُ نفسهُ لقيسية قد هكها السيفُ بالخصر

[1] ديوان الفرزدق:٢/ ٩٨ انشقت العصا: عم الشقاق، المقاذف: المشاتم، الصوارف، الاسنان تحتك بعضها ببعض، المقارف، المساور والمتأثم

إليك أمير المؤمنين نسيرها تخبُ المطايا بالعرانين مَن بكر
برأس أمري دلى سُلمياً وعامرا وأورد قيساً لجُ ذي حَدَبٍ غمر
فأسرين خمساً ثم أصبحن غدَوة يخبرنَ أخباراً ألذُّ من الخمر
يخَبرننا أن الأراقمَ فلقوا جَماجمَ قَيسٍ بَيَن رذانَ فالحضرِ[٢]

رأينا كيف يلح الأخطل على هذه الصفات ويستمتع بها كثيراً مديحه جاء لتمجيد هذه الصفات ومدحها والتغني بها أمام الممدوح، وقد كان لهذا الأمر أثره في المجتمع العربي وذلك لقوة تأثير هذا الشعر وجعله الوسيلة الإعلامية الضاربة في المجتمع العربي، فهكذا ينظر الأخطل إلى صفات القوة والافتخار بها وتمجيدها بقوة عندما رسم لنا صورة الرماح، والسيوف، والدماء الجارية والجماجم المتلاطمة التي كانت أجمل خبر عنده مع أنين الأجنّة في بطون أمهاتهم الذين لفظوا أنفاسهم جراء السيوف التي انهالت على بطون أمهاتهم، إن هذه الصورة هي تعبير عن ذات الشاعر وثقافته المتوارثة عن القوة والعنف والهتك والقسوة، ((فالعلاقات الاجتماعية أساس من أسس الإبداع الفني عموماً ، ولكن خصوصية العلاقة بين الأدب والمجتمع أكثر غنى من الفنون الأخرى، فالشاعر على أقل تقدير إنما يقوم فيه على أساس اللغة التي هي من أبرز الظواهر الاجتماعية وهي تنطوي على كثير من أعراق الجماعة اللغوية وتقاليدها المتوارثة فهو أسير الظواهر الاجتماعية وواقع تحت تأثيرها لإهماله))[١]، فالجذور الاجتماعية والثقافية العائدة ترتبط بقسوة في نفسية الشاعر وفكره وترتبط بتوجيه مساره في الفن .

وبهذا فان كثرة الخطابات السالبة في الشعر المدحي انما لميل الشعراء الامويين؛ لإرضاء الذائقة الادبية واذواق المتلقين بشكل عام والمثقفين منهم بشكل خاص، فالذائقة العربية جاءت باتجاه النظر والنسج على غرار الاشعار الجاهلية، ومن هنا أعلى المتلقون من الشعر الذي ينسج على غرار ما فعله القدماء .

الخاتمة:

- أثبت البحث وجود نظرة جدية لشعراء المديح الاموي في صياغة غرض المديح صياغة قبائلية تعتمد على مفاهيم سلبية كانت تتنافى مع الروحية العربية الاسلامية ومع مبادئ المجتمع العربي.
- انَّ حديث الشعراء الامويين عن القيم العربية والفضائل الاخلاقية لم يكن حديثاً واقعياً وهم يمدحون بها حكام بني امية، فما وصفوا به الحكام هو من نسج خيالهم؛ مما يوحي بتشبث

---

[٢] ديوان الأخطل: ١/١٢٢-١٢٤

(١) بنو الانسان/ ٣٤٥

هؤلاء الشعراء بالقيم الجاهلية ورغبتهم في احضار تراث اسلافهم في المدح والفخر والهجاء مع صياغة اسلامية .

- أثبت البحث دور الشعر الواضح في المجتمع العربي وبيّن منزلة الشعراء الكبيرة في المجتمع، فالشعر ديوان العرب وهو سجل وجودهم الانساني والتاريخي؛ فاستغلت المؤسسة السياسية هذا الفن للتماشي مع مصلحتها وسياستها المشيدة في المجتمع العربي .
- ركّز البحث على الخطابات ذات الانساق السلبية التي تركت اثرها في المجتمع العربي لتغلغل الشعر بمدى تاريخي عميق في المجتمع وتأثيره الكبير فيه، فجاءت عدد من السلبيات – التي اثّرت بالمجتمع – من شعر المديح الذي أعطى قوة شعرية بررت وزيفت ما فعله الحكام بشعوبهم .
- جاء شعر المديح من قبل الشعراء متقارباً في مضامينه الى حد كبير جدا، وكأننا أمام نمطية خاصة؛ مما يؤكد سيطرة النسق الشعري على الشعراء وانتاجهم خطابات متقاربة الى حد كبير
- اثبت البحث ان كثرة الخطابات السالبة في الشعر المدائحي انما لميل الشعراء الامويين؛ لإرضاء الذائقة الادبية واذواق المتلقين بشكل عام والمثقفين منهم بشكل خاص، فالذائقة العربية جاءت باتجاه النظر والنسج على غرار الاشعار الجاهلية، ومن هنا أعلى المتلقون من الشعر الذي ينسج على غرار ما فعله القدماء .
- استغل الشعراء القيم العربية البدوية التي توارثها العرب، وغدت تلك القيم من متتمات الشخصية العربية البدوية التي اختلطت مع الاجناس الاخرى ورمز من رموز عروبتها واصالتها وذلك بتأثير العصبية القبلية التي تأججت في العصر الاموي .
- كان للسلطة السياسية اليد الطولى في التدخل في مسيرة الفن الشعري وتحديداً غرض المديح في العصر الاموي، اذ كانت السلطة تعمل على توجيه الشعراء لتحقيق أهدافها، فهي بهذا تخلق ثقافة أحادية مهيمنة في المجتمع العربي، وهذه الثقافة يتم استهلاكها على يد الشعراء .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- اروع ما قيل في المديح، اميل ناصف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢ م
- الأساطير والأحلام والأسرار، ميرسيااليلياد، ترجمة، حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤ .

- الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٩٩٢م .
- الاشباه والنظائر، الخالديان، مطبعة المعارف، القاهرة، ط ٢، د – ت .
- أصول النقد العربي القديم، عصام قصبجي، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٦م
- بنو الإنسان، بيتر فارب، تر زهير الكرمي، دار المعرفة، الكويت، ١٩٨٣م.
- البيان والتبيين، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ ه)، تحقيق، عبد السلام محمد هـارون، مكتبـة الخانجي، القاهرة، ط ٧، ١٩٩٨م .
- تأويل مشكل القران، لابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦ه) علّق عليه ووضـع حواشـيه وفهارسه: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٧ م .
- التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، د . احمد ياسين السليماني، دار الزمان، سوريا، ط ١، ٢٠٠٩م .
- التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، د . شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١م
- حفريات في الاستبداد دراسة تحليلية نقدية، د . صلاح الجابري، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيـروت، ط ١، ٢٠١٠م .
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ه)، تحقيق وشرح، عبد السلام محمـد هـارون، مطبعـة مصطفى البابي، مصر، ط ٢، ١٩٦٩م
- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، د . علي الوردي، دار كوفان، لندن، ٢٠٠١م .
- ديوان الاحوص، دار التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤ م .
- ديوان الأخطل غياث بن غوث، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م .
- ديوان جرير شرح محمد بن حبيب، تحقيق، د . نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط ٣، ٢٠٠٩ م .
- ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق، د . نوري حمودي القيسي، د . حاتم صـالح الـضامن، مطبعـة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م .
- شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشرحها وأكملها إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٣م .
- شرح ديوان كثير عزة، شرح وتحقيق، د . رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م .
- الشعر فاعلاً إرهابياً قراءة في خطابات شعرية سالبة، د . رحمن غركان، رند للطباعة، دمشق، ط ١، ٢٠١٠ م

- صناعة العقل دور الثقافة والتعليم في تشكيل عقلك المبدع، كين روبنسون، ترجمة، د . رامة موصللي، مؤسسة احمد للمعلومات، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٨م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الإمام علي أبي الحسين بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦ه)، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م .
- في النص الشعري العربي مقاربات منهجية، د . سامي سويدان، دار الاداب، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م .
- القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٩م .
- القصيدة والنص المضاد، د . عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧ .
- مروج الذهب، ابو الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦ ه، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣م
- مقدمة ابن خلدون، الإمام العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المالكي الحضرمي ٨٠٨ ه، دار الشرق العربي، بيروت، ٢٠٠٤م .
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الامدي ت ٣٧٠ه، تح السيد احمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، د ت
- نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، إيليا سليم الحاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٦٩م .